التوأمان : الشرق والغرب — ١

شرق بصير

وغربٌ مبصر (١)

لميخائيل نعيمة

تفرّدت اللغة العربية بكمالات كثيرة ولاسيما في معالجة النفس البشرية وما انطوت عليه من قوى ومشاعر ونزعات . وفي ذلك دليل على أن بُناة هذه اللغة الكريمة قد سبروا في النفس أغواراً سحيقة وإلا لما خلقوا لغة تمكّنهم من تصوير دقائق النفس في أدق معانيها ، وأشفّ ألوانها ، وألطف ظلالها ، فما كانت اللغة يوماً أكثر من أداة للإفصاح عن حاجة في النفس أو حاجة في الجسد . فعلى قدر ما تتسع تلك الحاجات وتتنوّع طواياها تتسع اللغة وتتنوّع أساليبها . وشعبٌ غزير الحس ، مرن الفكرة ، وثاب الخيال لا بدّ من أن يخلق لغة غزيرة الألوان ، مرنة المفاصل ، وثّابة البيان .

من أكمل كمالات العربية وأسماها تمييزها ما بين «البصيرة» و«البصر» وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة ، بل توأمين من بطن واحد . ولكن ذلك الفرع غير هذا . ولكن هذا التوأم غير ذاك . فكأنهما واحد وليسا بواحد . فالعين إذ تمر بهما تحسّ ما بينهما من تجانس . ولكنها تحس مع التجانس تبايناً . والأذن إذ تلتقطهما تستأنس في الاثنين برنة تكاد تكون واحدة ولكنها غير واحدة . فهما أبداً متلاصقان متباعدان ، ومتشابهان متناقضان . أما التلاصق والتشابه ففي المصدر ، وأما التناقض والتباعد ففي الطريق والواسطة

فالبصر — ومركزه العين — تنحصر كل همّته في التقاط أشكال الأشياء وألوانها ومن أشكالها وألوانها يحاول أن ينفذ إلى كنهها . حين ان البصيرة — ومركزها القلب أو الوجدان — همّتها الوصول الى بواطن الأشياء دون التلهي بظواهرها . فالاثنان يدأبان وراء المعرفة . لكن سبيل الواحد غير سبيل الآخر . أما أي السبيلين أفضل وأكفل بالوصول الى المعرفة فأمرٌ لكل منكم الحق أن يبتّ فيه بحسب هواه

أما أنا فقد قلت من زمان — وما أزال أقول — بأسبقية البصيرة على البصر في

(١) أذيعت من راديو الشرق = بيروت

بلوغ الغاية المنشودة التي هي الفهم الاقصى المؤدي الى الحرية القصوى

لن يبلغ البصر قلب الحقيقة قبل أن يبلغ حدوده ويدرك عجزه وقصوره ، ويلوذ بالبصيرة فينقلب بصيرة . أما البصيرة فلا حدود لها ، مثلما لا حدود للحقيقة التي تتوخاها. نعم ، وان تركأت على البصر ، لا تسير على نوره . فالحدود لا يسع سوى الحدود . وما كان بغير حدود لا يسعهُ إلاّ ما كان بغير حدود

والآن اذا ما قلت لكم ان الشرق هو بصيرة العالم وان الغرب هو بصره فما إخالكم تسيئون فهم ما أقول ، فتحسبوا ان الشرق كله بصيرة ولا بصر ، وان الغرب كله بصر ولا بصيرة . ذاك يعني تجريدكم الشرق عن كل حسّ خارجي ، وتجريدكم الغرب عن كل شعور باطني . وهو غير الواقع وغير المعقول . وجلّ ما أرمي اليه هو القول بأن زبدة الشرق في بصيرته وزبدة الغرب في بصره . وان الاثنين توأمان متلاصقان يبدوان كأنهما واحد ولكنهما غير واحد . لقد اتبع الشرق هدْي البصيرة . واتبع الغرب هدْي البصر . فأنجب الاول الانبياء وأنجب الثاني العلماء . فكانت هدية الانبياء الى العالم أدياناً ترفع الارض الى السماء وكانت هدية العلماء علوماً تهوي بالسماء الى الارض

لكنما الأنسان ، وقوى الانسان ، من ظاهرة وباطنة ، في مد وجزر متلازمين . فللبصيرة ، مثلما للبصر ، مدّ يتلوه جزر ، وجزر يتلوه مدّ . ومنذا ينكر ان من بصيرة الشرق قد فاض على العالم مدّ جارف من الكمالات والجمالات الروحية ؟ منذا ينكر على الشرق قوة اندفعت من قلبه وفكره وروحه الى كل قلب وفكر وروح فتغلغلت في نبضاتها وسيطرت على خلجاتها ، وتسلطت على أقدس أشواقها وأعز أمانيها ؟

منذا ينكر على الشرق سلطانه على كل ابناء الارض منذ كانت الارض وكان الشرق ؟ واي سلطان يتوخاه انسان على انسان ، أقوى من السلطان على القلب والفكر والوجدان ؟

ما هي بالهدية الصغيرة ان تهدي الى العالم بأسره إلهاً ، ومع الاله اليقين بأنهُ أب لك الشفوق الرحوم العادل ، ومع [illegible] الرجاء بالانعتاق من ربقة الموت وآلام الموت

تلك هي هدية الشرق الى العالم . وهي هدية ما تلقفها العالم حتى أصبح كله معبداً لإله تعددت أسماؤه وهو واحد . واذا الناس يفتحون أبواب قلوبهم وأفكارهم وبيوتهم لذلك الاله فلا يأكلون ولا يشربون ، ولا يزوّجون ولا يتزوّجون ، ولا يعملون ولا يستريحون ، ولا يولدون ولا يموتون الاّ باسمه ومشيئته

وكان بصيرة الشرق اذ هدت العالم الى الله حاولت ان تعطّل بصره من قبل ان تفتح بصيرته . فكان من ذلك ردّ الفعل العظيم الذي بدأنا نشهده في العصور الاخيرة . وأعني طغيان البصر على البصيرة . فالبصر اليوم في مدّ والبصيرة في جزر . وكما استغرق مدّ

البصيرة أجيالاً بل عصوراً طويلة ، يستغرق مدّ البصر عصوراً طويلة . ولعلّ العصر الذي نحن فيه هو نهاية تلك العصور

لقد كان من مدّ البصر ان حياة الانسان المادية أخذت تتقلب من حال الى حال بسرعة خاطفة فنظمٌ تنهار ونظمٌ تشاد وحواجز تندك وأخرى ترتفع وممالك تمحّى وغيرها يسطر ولآلىء تغدو حصى وحصى تغدو لآلىء . ما كان أمس حراماً يصبح حلالاً وما كان حلالاً يمسي حراماً

هوذا الانسان يهزأ بالنسر في جوّه ، وبالحوت في بحره ، وبالأسد في عرينه . وهو ينطق بصوته الأرض ، ويحبس نور النهار في أسلاك يسلّطها على الليل فتمحو ظلامه . ويجترح من العجائب أشكالاً وألواناً في مختبراته العجيبة . ولا ينقصه — على حد قول البسطاء — إلاّ أن يخلق انساناً نظيره ثم أن يغلب الموت

حقّاً انه لتيار هائلٌ جارف تتعالى أمواجه وتتدافع في كل ناحية . وفي تدافعها صخب الزلازل وعتوّ العواصف ، مع شيء من بهجة الفصول ، ورونق السماء ، وسحر الفوز بالغنيمة ، وجاذبية القوة الظافرة . فلا غرو اذا ما هي غمرت المعمورة وبهرت الأبصار فهي بنت البصر وللبصر الحق أن يعتزّ بها . فهو ما أحياها إلاّ لينعم بمواهبها وخدماتها

لا غرو أن يقف العالم ، وفي جملته هذا الشرق ، مشدوهاً تجاه مدنيّة الغرب المبصر ، وأن يهلّل لها ويكبر ، وأن يغفر لها كل زلاّتها ، ثم أن يعقد عليها آمالاً أبعد بكثير من مدى سلطانها . فهي ، على ما فيها من مرارة ، غنية بالحلاوة التي لا يصعب على أي انسان تذوّقها . لأنها حلاوة يتذوقها الحسّ . أما حلاوة المدنية القائمة على البصيرة فدون تذوقها شق النفس وقهر الجسد . لذلك كانت الأولى أقرب الى متناول الناس وأذواقهم من الثانية . ففيها — كما جاء في بعض الحكايات — « ما يُحلّي ويُسلّي ويعشّي الحمار » . والحكاية — اذا كنتم تجهلونها — هي حكاية مكارٍ معهُ حمار بلغ عند المساء فندقاً في الطريق فعزم أن يبيت ليلته فيه . ثم طلب الى صاحب الفندق أن « يأتيه بشيء رخيص يحلّي ويسلّي ويعشّي الحمار » فما كان من صاحب الفندق إلاّ أن جاءه ببطيخة . فتحلّى بلبها وتسلّى ببذرها وعشّى حماره من قشرها

ومدنية البصر للجماهير كتلك البطيخة لذلك المكاري . ففيها ما يخدع الذوق ، ويسلي العين والأذن ، ويلهي الانسان عن نفسه . مثلما فيها غذاء — أو بعض الغذاء — [illegible] في الانسان . أما القلب فتتركه دامياً . وأما الروح فتتلفه في مشنقة اللذة والخيرة والابهام . إلاّ انها ذات قيمة من غير شك . فليس من الحكمة نبذها ومن الجهل المطلق التفتيش فيها عن التغذية الكاملة للانسان الطامح الى الكمال

ذلك اذا ما أخذتموها من حيث تريد هي أن تؤخذ ، أي من حيث محاسنها لا غير . أما اذا تفحصتم مساوئها فلن تجدوا مدنية قبلها بلغت ما بلغته من التكالب والتباغض والقساوة

مع الكثير من التبجح بالعكس . وإمّا عجيّم لمشهد غريب فاعجبوا معي لهذا الشرق — وقد أهدى الى العالم الحنية والقناعة والتضامن والتآخي — يقف اليوم على مفرق طريق البصيرة والبصر كسير القلب ، ذليل الجفن ، ضامر الصدر والبطن ، وعينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، وفي يساره قائمة بأسفاره المقدسة واسماء انبيائه ، ثم اسمعه يستعطي بصوت متهدج فيه الانسحاق ، وفيه المسكنة والاندحار . وماذا عساه يستعطي ؟ انهُ ليستعطي طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل . واني لأسمعهُ يقول :

« من يقايضني قنبلة محرقة بآية منزلة ؟ وطيارة او دبابة بسفر مقدس ؟ بل من يقايضني مخترعاً واحداً بعشرة أنبياء ؟ » .

ما هذا ، ما هذا ؟ أبصيرة تستجدي بصراً ؟ أشمس تستغيث بذبالة ؟

أجل . ان بصراً نشيطاً لخير من بصيرة كليلة . وبصيرة الشرق حلّ بها كلال منذ ان بلغت من مدّها أقصاه . وان ذبالة تشتعل لخير من شمس اعتراها الكسوف . وشمس الشرق حلّ بها كسوف منذ ان انكفأ الشرق على ذاته في جزره الطويل . إلاّ أن الكلال يزول بالراحة . والكسوف ، من بعد ان يبلغ حدّه ، ينجلي عن شمس كلها نار وكلها نور . ومن ثمّ فالحياة — وهي أم التوأمين بالسواء ، أم البصيرة والبصر ، أم الشرق والغرب — ما درجت بالشرق الى أعلى ذراه حتى عادت فدرجت بالغرب الى اعلى ذراه . والذروتان ستلتقيان حتماً في ذروة واحدة هي ذروة الانسان الموحّد والمالك زمام نفسه وزمام الارض والسماء

اما زمان الملتقى فلن ينقاد تحديد قربه وبعده الى الذين يقيسون الزمان بالساعات والسنين ، والفضاء بالأذرع والفراسخ . فهو قريب ، أو قريب جداً ، ان في بصيرتهم أبصار ، وفي بصرهم بصائر . وبعيد ، وبعيد جداً ، ان بصائرهم كفيفة وعلى أبصارهم غشاوات

والى ان يكون الملتقى لا بد للشرق من وثبة بعد هجعة ، وللغرب من هجعة بعد وثبة . بل لا بدّ لذاك وهذا من وثبات بعدها هجمات

واني لأرجو لهذا الشرق ان تكون وثبته القادمة وثبة تجلو الغشاوة عن بصيرته وعن بصر أخيه الغرب . وثبة فيها القوة دون البطش ، والمعرفة دون الادعاء ، والرفعة دون الكبرياء ، والقناعة دون الخنوع ، والايمان دون التعصب ، والسلام دون الانتقام ، والنور دون النار ، والسكينة دون الاستكانة . وكيف لمن سيم الذل دهراً ان يسوم سواه الذل يوماً ؟ ولمن ذاق طعم الفقر ان يشتهيه لغيره ؟ لا يشبع من أجاع جاره . ولا يعلو من نعله على عنق قريبه

ما دامت البشرية على هذه الأرض دام شرقها في حاجة الى غربها ، وغربها في حاجة الى شرقها . وكان ما يرفع الواحد يرفع الآخر ، وما يحط هذا يحط ذاك . فما طار نسرٌ بجناح واحد ولا صفقت يمينٌ بغير يسار